بين القاضي الجرجاني
و
عبد القاهر الجرجاني

د. عبده عبد العزيز قلقيلة

العلاقة بين القاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني لاتقتصر على ما يكون بين المؤلف السابق والمؤلف اللاحق في الموضوع الواحد ، بل انها تتجاوز ذلك الى كونها علاقة بين مواطن ومواطن ، وربما بين قريب وقريب ، ولقد نمت حتى صارت علاقة بين أستاذ وتلميذ ·

وتلمذة عبد القاهر للقاضي ، او أستاذية القاضي لعبد القاهر . هذه القضية بشقيها المتلازمين كوجهي العملة ، تحتاج الى دراسة ·

فقد ذكر ياقوت ان الشيخ عبد القاهر الجرجاني صاحب [أسرار البلاغة] و [دلائل الاعجاز] فقد قرأ على القاضي واغترف من بحره ، وكان اذا ذكره في كتبه تبخبخ به وشمخ بانفه بالانتماء اليه (١) ·

وهذا الذي ذكره ياقوت يعني أنهما قد التقيا ، والا فكيف قرأ عبد القاهر على القاضي ؟!!! ·

ان عبارة [قرأ على القاضي] لا تحتمل أي نوع من التجوز ·

وأستاذية القاضي لعبد القاهر بمعنى الأخذ الشفهي المباشر ، أمر لم أجد له من يقول به من المؤرخين سوى ياقوت ، وهي دعوى بلا دليل ، بل ان الأدلة تنقضها ·

ومن هذه الأدلة طول المسافة الزمنية بينهما ، فالقاضي مات سنة ٣٩٢ ، وعبد القاهر مات سنة ٤٧١ أو سنة ٤٧٤ (٢) .

والبعد الزمني بين الوفاتين بعد كبير وواسع ، فهو بين أن يكون ٧٩ أو ٨٢ سنة ، يحتاج عبد القاهر معه الى ما يقرب من خمس عشرة سنة ليكون قادرا على الأخذ والتلقي .

هذا الفاصل الزمني الذي يقرب من مائة سنة نحن معه بين أمرين : ـ

اما أن نتأخر بوفاة القاضي الى ما بعد سنة ٣٩٢ ، واما أن نتقدم بوفاة عبد القاهر عن سنة ٤٧١ وكذلك بيوم مولده حتى تصح له سن تسمح بالتلقي في أخريات حياة القاضي ، فبدون هذه العملية لا تصح رواية ياقوت . لكن أيمكن ذلك ؟ .

لا يمكن طبعا ، اذ ليس في مقدور أحد أن يقدم ميلاد ولد أو يؤخر موت من مات .

ودليل آخر يقدمه ياقوت نفسه حين يذكر أن عبد القاهر الجرجاني ليس له أستاذ سوى أبي الحسين محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وتابعه على ذلك السيوطي في بغية الوعاة (٣) .

وقد قرأت ترجمة عبد القاهر في كثير من المصادر فلم أجد أحدا قال : انه قرأ على القاضي .

ومن الكتب التي رجعت اليها في ذلك : ـ

فوات الوفيات جـ١ ص ٦١٢ ، وانباه الرواة. على أنباه النحاه جـ٢ ص ١٨٨ ، وسير أعلام النبلاء جـ١١ ص ٢٤٦ ، وطبقات الشفعية الكبرى جـ٣ ص ٢٤٢ ، وكنوز الأجداد لمحمد كرد علي ص ٢٦٠ والأدب العربي لمحمود مصطفى جـ٢ ص ١٩٠ ، والوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص ٢٣٠ ، ومن الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده لمحمد خلف الله ص ٧٢ ، ومقدمة أسرار البلاغة لمحمد رشيد رضا .

واذن فلم يتم الأخذ مشافهة .

كل ما هنالك أن الجرجاني الصغير عبد القاهر أعجب بالجرجاني الكبير القاضي علي فعكف على كتبه ومكتبته ، وربما كانت له به قرابة ساعدته على ذلك فتخرج عليه بعد مماته وليس في حياته ، وحق له حينئذ

ان يتبنبخ به وأن يشير اليه والى آرائه مرات كثيرة في كتابيه ، ورأى ذلك ياقوت فقال بتلقيه عليه وأخذه الشفهي عنه ·

والآن مع الأفكار المشتركة والآراء المتشابهة في [الوساطة بين المتنبي وخصومه] للقاضي ، وفي [أسرار البلاغة] و [دلائل الاعجاز] لعبد القاهر ·

ولأننا مع كتاب يواجه كتابين ، فاننا سنمشي المشوار مرتين :

مرة بين الوساطة وأسرار البلاغة ·

ومرة بين الوساطة ودلائل الاعجاز ·

أولا ـ بين الوساطة وأسرار البلاغة

- ١ -

ما نكاد نفتح [أسرار البلاغة] حتى نجد عبد القاهر يختار للغة الأدب اللفظ الوسط : ـ

« وأما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه ، وكونه من أسبابه ودواعيه ، فلا يكاد يعدو نمطا واحدا وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ، ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا أو عاميا سخيفا » (٤) ·

والمعقول أن نقول : ان عبد القاهر قد تأثر في هذا بأستاذه ومواطنه القاضي الجرجاني ، فالقاضي الجرجاني يؤمن بالتطور اللغوي ·· ونراه ـ لذلك ـ يثني على المحدثين بتجاوبهم مع بيئتهم وتمثلهم لحضارتهم ، ذلك أن العرب كانت تخص الشعر بفضل تهذيب وتفرده بزيادة عناية ، وقد كانت طبيعتها لبداوتها خشنة ، فمن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولهذا جاء شعرهم فخما جزلا وقويا متينا · لكن الاسلام قد انتشر واتسعت الممالك وكثرت المدن وتحضر البدو ، فاختاروا من الكلام ألينه وأسهله ، وترققوا في شعرهم وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ ، فصارت اذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللين فيظن ضعفا ، فاذا أفردت عاد ذلك اللين صفاء ورونقا ··

والقاضي يحتاط لنفسه وهو يشجع المحدثين على السهولة واللين فيقول : ـ

« ومتى سمعتني أختار للمحدث هذا الاختيار وأبعثه على التطبع ، وأحب له التسهيل ، فلا تظن أني أريد بالسمح السهل الضعيف الركيك ، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث ، بل أريد النمط الأوسط ما ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوي الوحشي » (٥) ·

من هذا النبع الثر ، ومن هذه الدراسة المعمقة امتاح عبد القاهر رايه في لغة الأدب ·

لكن ليس ما يمنع من أن يكون قد استفاد من النقاد الذين سبقوا القاضي كبشر ، والجاحظ ، وقدامة والأمدي · وللجاحظ عبارة صريحة في ذلك قال : ـ

« كما لا ينبغي أن يكون اللفظ ساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا » (٦) ·

ويظهر أن لغة الأدب في ذلك الوقت وقبله وبعده كانت تتجاذبها نزعتان متضادتان :

احداهما بدوية مسرفة أي وحشية ، والأخرى حضرية متسامحة أي سوقية ، وهما طرفان مذمومان ، ولهذا رأينا كثيرا من النقاد المشتغلين بالأدب يوجهون اهتمامهم الى هذه الناحية ، وينصون على أن خير الأمور أوسطها ، وأن أحسن شيء للأديب ارساله نفسه على سجيتها لتقول ما يهدها به الطبع ·

قال ابراهيم بن المهدي لعبد الله بن صاعد كاتبه : ـ « اياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعا في نيل البلاغة فان ذلك هو العي الأكبر ، وعليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل » (٧) ·

- ٢ -

القاضي ناقد تجريبي يدعو الى تطبيق العلم على العمل : ـ

« ودونك هذه الدواوين الجاهلية والاسلامية ، فانظر هل تجد قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه » (٨) ·

« وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك » (٩) ·

« وانظر هل تجد معنى مبتذلا ولفظا مشتهرا ؟ وهل ترى صنعة وابداعا ، أو تدقيقا واغرابا » (١٠) ·

« ومتى شئت أن ترى ما وصفته عيانا وتعلمه يقينا فاعترض أول عامي غفل تستقبله ، واعجمي جلف تلقاه ثم سله ... » (١١) ٠

وها هو ذا عبد القاهر يسلك في [أسرار البلاغة] نفس المسلك :

« لو كان رجل على طرف نهر وقت مخاطبة صاحبه واخباره بأنه لا يحصل من سعيه على شيء فادخل يده في الماء وقال : ـ

انظر هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول ونطق بذلك دون الفعل ، ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا في تنافي شيئين فقال : ـ « هذا وذاك هل يجتمعان ؟ واشار الى ماء ونار حاضرين ، وجدت لتمثيله من التأثير مالا تجده اذا أخبرك بالقول فقط » (١٢) ٠

- ٣ -

وغير بعيد عما قلناه تحت رقم ٢ ما سنقوله تحت رقم ٣ ، وما سنقوله يمكن عنونته بنظرية التأثرية ٠ وهي نظرية تجد سندها في الدراسات النفسية الحديثة ، فمن أخص صفات الشعور الذي يثيره العمل الفني أنه يوحد بين متلقي الأدب ومبدعه الى درجة يشعر معها المتلقي كانه صاحب العمل الفني ، وان ما عبر عنه هو ما كانت نفسه تهفو الى التعبير عنه ٠

وفي نقدنا العربي شيء من هذا بل في نقدنا العربي كل هذا ٠

يقول قدامة : ـ « ان المحسن من الشعراء فيه [النسيب] هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو داثر أنه يجد أو قد وجد مثله » (١٣) ٠

هذا النص لقدامة معناه أن مقاييس جودة الأدب قوة تأثيره في نفس متذوقة ٠

وكثيرا ما وضع القاضي هذا المقياس موضع التطبيق العملي في الوساطة ٠

فهو يذكر شيئا من شعر البحتري ويقول : « تأمل كيف تجد نفسك عند انشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ويستخفك من الطرب اذا سمعته ، وتذكر صبوة ان كانت لك تراها ممثلة لضميرك ومصورة تلقاء ناظرك » (١٤) ٠

فقدامة والقاضي متفقان على أن الأدب يجب أن يكون مرآة لوجدان مستقبله ، كما هو في الأصل مرآة لوجدان مرسله ·

وقد استغل عبد القاهر بعدهما هذا الكشف وجعله الأساس الذي بنى عليه كتابه [أسرار البلاغة] فهو يقيس كل الصور البلاغية فيه بمقدار تأثيرها في النفس ، وذلك ما يسميه المحدثون Introspection أي الفحص الباطني وهو أن تقرأ الشيء وتراقب نفسك عند قراءته وبعدها وتتأمل ما يعروك من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان وتحاول أن تفكر في مصادر هذا الاحساس · وبهذه الطريقة في القراءة تختلف القصيدة من قارىء لآخر وتصير ذات وجود متعدد يكاد لا يأتي عليه الحصر (١٥) ·

★★★

ولا يعوزنا الدليل على تأثر عبد القاهر بالقاضي في هذا الشأن ، فنحن نجده في أي فصل قرأناه ، بل في أية صفحة قلبناها من أسرار البلاغة ، واسمع قوله : ــ « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل اذا جاء في أعقاب المعاني ضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا » (١٦) ·

وانه ليورد قول البحتري : ــ

دان على أيدي العفاة وشاسع   عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوؤه   للعصبة السارين جد قريب

ثم يعول في بيان قيمة التشبيه فيه على ما كان القاضي يعول عليه في تذوق النصوص الأدبية وهو ما دعوناه : نظرية التأثرية (١٧) ·

كما أنه يقارن بين اخفاء التشبيه بالاستعارة في قول الشاعر : ــ

لا تعجبوا من بلى غلالته   قد زر أزراره على القمر

واظهاره فيه لو قلنا : لا تعجبوا من بلى غلالته فقد زر أزراره على من حسنه حسن القمر ، ثم يسأل كما كان القاضي يسأل : ــ هل ترى الا كلاما فاترا ومعنى نازلا ، وأخبر نفسك هل تجد ما كنت تجده من الأريحية ،

وانظر في أعين السامعين : هل ترى ما كنت تراه من ترجمة عن المسرة ودلالة على الاعجاب ؟ (١٨) .

- ٤ -

تعيش الأفكار الشعرية في منطقة الظل من القصيدة أو المقطوعة أو البيت ، أما العواطف والانفعالات فانها تتوهج وتلمع كلما انتفخت أوداج الشاعر بها ، وسارت شاعريته في الاتجاه المشبع لها ، وهذا أمر طبيعي ، فأهم ما يمتاز به الشعر عن النثر أن يتجه الى مخاطبة الوجدان والعواطف ، لا الى الادراك والتفكير ، لأن غرضه الأساسي هو الايحاء بالحقائق والاحساسات لاشرح المسائل وتقريبها من الأذهان ، ولذلك يظهر فيه الغموض والميل الى الابهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال والكنايات ، واستخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له .

وأراني بهذا الذي قلته قد فصلت ما أجمله القاضي الجرجاني بقوله : ـ

« وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني لقديم أو محدث ، الا ومعناه غامض مستتر ، ولولا ذلك لم تكن الا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ولم تشغل باستخراجها الأفكار البارعة » (١٩) .

والقاضي مصيب فيما قاله ، فالايحاء شرط أساسي في الأدب ، ولابد في الشعر خاصة من الضباب كي تكون له قدرة على الايحاء ، فمن مقاييس الجودة أن يزداد ما يضيفه القارىء الى ما يقرأ وهو لن يضيف الا اذا ترك له الشاعر ما يضيفه .

ذلك كان تفكير القاضي في هذه الناحية من نواحي الابداع الفني .

وقد تبعه تلميذه عبد القاهر بدعوته الى أن تكون معاني الأدب في منزلة وسط بين الوضوح والغموض فلا هي سافرة صراحة ، ولا هي مطبقة الخفاء ، وكل ما زاده على القاضي أن فلسف رأيه وعلله بهذا الكلام : « ومن المركوز في الطباع أن الشيء اذا نيل بعد الطلب له والاشتياق اليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى وبالميزة أولى ، فكان موقعه من النفس أجل والطف ، وكانت به أضن واشغف (٢٠) » . على أن ثمة فرقا بين هذا الذي يدعو اليه الجرجانيان وبين التعقيد الذي ذماه : ـ

ذمه القاضي في الوساطة ، وذمه عبد القاهر في الأسرار ، وقد اتفقا على التمثيل له ببيت المتنبي : —

ولذا اسم أغطية العيون جفونهــا   من أنها عمل السيوف عوامل (٢١)

- ٥ -

كثيرا ما يقف عبد القاهر على مواقع أقدام أستاذه ، وقد يقف على بعد منه ، لكنه دائما في حضنه وتحت مظلته . ونوضح ذلك أكثر بالآتي : —

أورد القاضي قول ابن المعتز : —

بياض في جوانبه احمرار   كما احمرت من الخجل الخدود

وجعل نقده مزيجا من المؤاخذة له والثناء عليه .

وجاء عبد القاهر فأورد البيت نفسه في أسرار البلاغة ، واقتصر في نقده على مدحه ، ثم قال : — وقال القاضي أبو الحسن رحمه الله : — لو اتفق له أن يقول : (احمرار في جوانبه بياض) لكان قد استوفى الحسن ، وذلك لأن حد الخجل هكذا : يحدق البياض فيه بالحمرة ، لا الحمرة بالبياض .

ويعلق عبد القاهر قائلا : — الا أنه لعله وجد الأمر كذلك في الوردة فشبه على طريق العكس فقال : — هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك (٢٢) .

ونحن نلاحظ أن عبد القاهر يعتذر عن الشاعر ولا يسلمه للناقد .

ومع هذا فهو حريص على عدم مخالفته ، يقول : قال المتنبي : —

دون التعانق ناحلين كشكلتي   نصب أدقهما وضم الشاكل

وهو غير قول الآخر : —

اني رأيتك في نومي تعانقني   كما تعانق لام الكاتب الألفا

فان هذا قد أدى اليك شكلا مخصوصا لا يتصور في كل واحد من

المذكورين على الانفراد ، وصورة لا تكون مع التفريق ، وأما المتنبي فأراك الشيئين في مكان واحد وشدد في الفرق بينهما ، وذلك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومفارقتها صورة الافتراق ، وانما عمد الى المبالغة في فرط النحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا .

وذهب القاضي في بيت المتنبي الى أنه معنى مفرد غير مأخوذ من قول الأخر : ـ

كمـا تعانق لام الكاتب الألفـا

وقال : ـ ولئن أخذه كما يقولون فليس عليه معتب ، لأن التعب في نقله ليس بأقل من التعب في ابتدائه .

ونحن نستشعر الولاء في قول عبد القاهر : ـ وهذا التفضيل والتفصيل من قول القاضي ليس قادحا في غرضي ، لأني أردت أن اريك مثالا في وضع التشبيه على الجمع والتفريق ، وأجعل البيتين معيارا فيما أردت ، ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين ولكن على جهة أخرى وهي الاغراق في الوصف بالنحول ، وجمع ذلك للخلين معا ، ثم اصابة مثال له ونظير من الخط ، فاعرف ذلك ، ولا تظن أن قصدي المفاضلة بين البيتين من حيث القول بين السابق والمسبوق ، والأخذ والسرقة فتحسب اني خالفت القاضي فيما حكم به (٢٣) .

- ٦ -

احتمال تأثر الشاعر بأفكار شاعر آخر وأحاسيسه وصوره احتمال قائم ووارد ، وقد ننخدع نحن النقاد فنظن أن ذلك من ابتكاره ، بينما هو قد استمده عبر المسارب الخفية في النفس الانسانية وأدخله في حوزته من الأبواب للعقل الواعي ، وهي الأبواب الموصلة الى ما يسمى في علم النفس الحديث بالعقل الباطن .

ولهذا تحرز العقلاء من نقاد الأدب عربا وأعاجم عن القول باختراع المعاني ، كما تحرزوا بالمقدار نفسه وربما اكثر عن القول بسرقتها .

وقد كان القاضي أحد هؤلاء العقلاء ، ها هوذا يقول في معرض التعليق على بعض الشعر الجيد لأبي الطيب : « وهذه أفراد أبيات منها أمثال سائرة ومنها معان مستوفاة ولعل اكثرها من اللمع المختارة مختارة المعاني ومفترعة

المذاهب ، لكن ليس لك أن تلزمني تمييز ذلك وافراده والتنبيه عليه بأعيانه كما فعله كثير ممن استهدف للألسن فقال : ــ معنى مفرد وبيت بديع ، ولم يسبق فلان الى كذا ، وانفرد فلان بكذا ، لأني لم أدع الاحاطة بشعر الأوائل والأواخر ، بل لم أزعم أني نصفته سماعا وقراءة ، فدع الحفظ والرواية ولعل المعنى الذي أسمه بهذه السمة ، والبيت الذي أضيفه الى هذه الجملة في صدر ديوان لم أتصفحه ، أو تصفحته ولم أعثر بذلك السطر منه ، أو عساني اكون رويته ثم نسيته ، أو حفظته لكني اغفلت وجه الأخذ منه وطريقة الاحتذاء به » (٢٤) .

وواضح أن القاضي يعتذر هنا عن الحكم بخلق المعنى وابتكاره .

لكنه من ناحية أخرى لا يشكك في ذاتية الأديب ، ولا ينفي ما عساه أن يكون له من أصالة ، ولهذا قال بتوارد الخواطر ، وخطر على نفسه وعلى غيره بت الحكم بالسرقة الا اذا وجد في شعر الشاعر معاني كثيرة مأخوذة عن غيره ، فانه والحالة هذه يبتها ، وحتى في هذه الحالة نراه يفسح صدره للسارق ويسلم له بكل ما في شعره من المعاني ، لكن بعد أن يحكم بأن فيها مأخوذا لا يثبته بعينه ، ومسروقا لا يميزه من غيره ، وانما أمره أن يقول : ــ قال فلان كذا ، وقد سبقه اليه فلان فقال كذا فيغتنم فضيلة الصدق ويسلم من اقتحام التهور (٢٥) .

والقاضي محق في هذا السلوك المزدوج أو شبه المتناقض ، لأنه وان كان العمود الفقري لأية دراسة أدبية ، انما هو اظهار ما عند كل شاعر او كاتب من أصالة ، الا أن ذلك ليس أمرا ميسورا في كل حالة ، فالى اليوم لا يزال النقاد حيارى في تحديد ما أتى به كل أديب من جديد ، وانه وان تكن هناك عملية تفاعل تزداد عمقا كلما ازدادت النفس التي تحدث فيها خصبا الا أننا لا يمكننا أن نجزم بأصالة ما ينتج عن ذلك التفاعل .

وللناقد جوستاف لانسون كلام بهذا المعنى يتوارد فيه مع القاضي قال : ــ

« نحن نسعى الى تحديد أصالة الأفراد ، ولكن مهما يكن الأفراد من العظمة ، فان دراستنا لا يمكن أن تقتصر عليهم ، لأننا لن نعرفهم اذا لم نرد أن نعرف غيرهم ، فأمعن الكتاب أصالة انما هو الى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة، وبؤرة للتيارات المعاصرة ، وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته ، فلكي نجده ، هو في نفسه ، لابد أن نفصل عنه كمية كبيرة من

العناصر الغريبة ، يجب أن نعرف ذلك الماضي الممتد فيه ، وذلك الحاضر الذي تسرب اليه ، فعندئذ نستطيع ان نستخلص أصالته الحقيقية ، وأن نقدرها ونحددها ، ومع ذلك فلن نعرفه عند تلك المرحلة الا معرفة احتمالية » (٢٦) .

وقد نعجب من هذا التوافق وتوارد الخواطر بين لانسون والقاضي ، ولكن عجبنا ينقضي اذا علمنا أن الحقائق العلمية والدقائق الفنية أمور معنوية موطنها الأصلي هو الذهن الانساني بصرف النصر عن زمانه أو مكانه .

والآن مع سرقات المعاني من وجهة نظر القاضي .

تنقسم المعاني من وجهة نظر القاضي الى ثلاثة أقسام : —

١ — المعاني المشتركة : — وهي تلك التي لا ينفرد أحد منها بسهم لا يساهم عليه ولا يختص بقسم لا ينازع فيه كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد البطيء بالحجر والحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار ، والصب المستهام بالمخبول في حيرته ، والسليم في سهره ، والسقيم في أنينه وتألمه .

هذه المعاني وأمثالها لا يحكم القاضي فيها بالسرقة ، لأنها أمور متقررة في النفوس ومتصورة للعقول ، يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر والمفحم (٢٧) .

٢ — ما أصله من المعاني مخترع مبتدع سبق المتقدم اليه ففاز به ، لكنه تدوول بعده فكثر واستعمل حتى صار كالأول في الجلاء والاشتهار والاستفاضة على ألسن الشعراء ، كتشبيه الطلل بالكتاب والبردة ، والفتاة بالغزال في جيدها وعينيها ، والمهاة في حسنها وصفائها ، وكوصف البرق بخطف الأبصار وبسرعة اللمح وأنه كالقبس من النار وكالحريق المتضرم وكمصباح الراهب (٢٨) .

٣ — المعنى المختص الذي حازه المبتدىء فملكه ، وأحياه السابق فاقتطعه ، لكنه لم يبتذل بالاستعمال بحيث يحمي نفسه عن السرق ويدفع عن صاحبه (آخذه) مذمة الأخذ ، ولهذا كان المتعدى عليه مختلسا سارقا والمشارك فيه محتذيا تابعا (٢٩) .

ومن أمثلة هذا القسم قول عدي بن الرقاع : —

وكانها بين النساء اعارها   عينيه احور من جاذر جاسم
وسنان ايقظه النعاس فرنقت   في عينه سنة وليس بنائم (٣٠)

ومن امثلته كذلك وصف المتنبي للحمى في شعره الفلسفي (٣١) ·

★★★

هذا هو تقسيم القاضي للمعاني وتلك هي آراؤه في سرقتها ·

لكنه لا يطلق القول بعدم الأخذ في القسمين الأول والثاني ، وانما يتيح للفنية والابتكار فرصة الظهور والعمل بساحه للشاعر أن يأخذ ما يشاء عمن يشاء من شعراء وغير شعراء ، بشرط أن يكون عنده من الثقافة وواسع العلم ما يجعله يرد الى ناحية تفكيره أو الى ناحية وجدانه شيئا مما أخذ ·

ها هو ذا يستدرك على نفسه بعد أن فصل القول في المعنى المشترك ، وما ثنى به عليه مما كان أصله مخترعا لكنه تدوول واستفاض فيقول : —

« وانما يصح في هذا الأخذ اذا أضيفت اليه صنعة لفظ ، أو وصل بزيادة معنى » (٣٢) ·

ويسوق لذلك العديد من الأمثلة فيقول : —

ولم يزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود والخدود بالورد نثرا ونظما وتقول فيه الشعراء فتكثر ، وهو من الباب الذي لا يمكن ادعاء السرقة فيه الا بتناول زيادة تضم اليه أو معنى يشفع به كقول علي ابن الجهم : —

عشية حياني بورد كانه   خدود اضيفت بعضهن الى بعض

فاضافة (بعضهن الى بعض) ان أخذت فمنه تؤخذ واليه تنسب ·
ثم قال أبو سعيد المخزومي : —

والورد فيه كانما اوراقه   نزعت ورد مكانهن خدود

فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت اذا قسته الى غيره وجدت المعنى واحدا ثم أحسست في نفسك عنده هزة ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها (٣٣) ٠

ومتى تحمل المعنى هذه الزيادة وسعد بها تكونت له فنية خاصة به . وربما تحول بفعل هذه الفنية الى شيء آخر مغاير كل المغايرة لأصله الأول ، ومن هنا صح الحكم بسرقته ٠

واذ ننتقل بالموضوع الى عبد القاهر في (أسرار البلاغة) نجده يكاد أن يكون صورة طبق الأصل من القاضي في الوساطة : ـ

فالاتفاق عنده اما أن يكون في الغرض أو في وجه الدلالة عليه ، وهو في الأول لا يعد سرقة ، أما في الثاني ، فان كان مما اشترك الناس في معرفته ، وكان مستقرا في العادات والعقول كالتشبيه بالأسد في الشجاعة ، وبالبحر في السخاء ، وبالبدر في البهاء ، لم يعد هو الآخر مالم تدخله صنعة ٠

وان كان مما ينتهي اليه المرء بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، فهو الذي يجوز أن يدعي فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولوية وان يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد ، ومن هنا صح الحكم فيه بالسرقة (٣٤) ٠

- ٧ -

القول بالتخصص في النقد دعوة دعاها نقاد كثيرون منذ خلف الأحمر الى ابن الأثير ومن جاء بعده ، ومع هذا فقد ذكرت صاحب الوساطة وأنا أقرأ كلام عبد القاهر في هذا الشأن ، ذكرته بما لمحته بينهما من تقارب في المضمون والشكل (٣٥) ٠

- ٨ -

ونحن لم نقل : ان عبد القاهر قد تأثر أستاذه فيما عرض له من دراسة بعض الصور البديعية كالجناس والطباق ، وبعض الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة ، ولو أنه ذكر اسمه ونقل عنه وهو يعالج هذه الموضوعات أكثر من مرة ٠

لم نقل ذلك ولم نره ، لأنه قد اختط لنفسه في هذه المباحث طريقة

مبتكرة ، ولأنه قد احتفل بها وأطال فيها بينما لم يتناولها القاضي الا خطفا ، ولم يقف عندها الا ليأخذ نفسه ، ومع ذلك فقد اعتذر عما قاله ، وأبان انه قاله عرضا (٣٦) .

ثانيا ـ بين الوساطة ودلائل الاعجاز

١ ـ أول ما نجده في دلائل الاعجاز دالا على تأثر عبد القاهر بالقاضي هو تأكيده ما قاله في أسرار البلاغة عن التخصص (٣٧) .

٢ ـ وثاني ما نجده له هو اقتباسه تعريفه للاستعارة (٣٨) .

٣ ـ واذا كان في أسرار البلاغة قد انتفع بالوساطة في الحكم أو عدم الحكم بالسرقة ، فانه في دلائل الاعجاز قد فسر ما سماه صاحب الوساطة (احتذاء المثال) .

واحتذاء المثال قال به القاضي مرتين : ـ

مرة وهو يناقش مهلهل بن يموت في ادعائه بعض السرقات على أبي نواس ، فقد ادعى مهلهل أن قول أبي نواس في الخمر : ـ

أتت من دونها الأيام حتى كأنها   تساقط نور من فتوق سماء

من قول جرير : ـ

يجري السواك على أغر كأنه   برد تحدر من فتوق غمام

يقول القاضي : ـ « ولست أرى شبها يشتركان فيه الا أن ادعي احتذاء المثال فلعله » (٣٩) .

تلك هي المرة الأولى .

أما المرة الثانية فكانت حين قال البحتري :

واذا ما تنكرت لي بلاد   أو صديق فانني بالخيار

وهو معنى مبتذل بين المتقدمين والمتأخرين ، وقال ابن المعذل فأحسن وأوجز ، لكنه اقتصر على البلد : ـ

اذا وطن رابني   فكل بلاد وطن

وقال أبو الطيب واحتذى مثال البحتري وأجاد وللبحتري الفضل : ـ

اذا صديق نكرت جانبه   لم تعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب   وفي بلاد من أختها بدل (٤٠)

هذان هما الموقفان اللذان قال فيهما القاضي باحتذاء المثال ·

وننظر ما عند عبد القاهر فيه قال : ـ

واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدىء الشاعر معنى له وغرض أسلوبا ـ والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه ـ فيعمد شاعر آخر الى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره ، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال : قد احتذى على مثاله ، وذلك مثل أن الفرزدق قال :

أترجو ربيع أن تجيء صغارها   بخير وقد أعيا ربيعا كبارها ؟!

احتذاه البعيث فقال : ـ

أترجو كليب أن يجيء حديثها   بخير وقد أعيا كليبا قديمها ؟!

قالوا : ان الفرزدق لما سمع هذا البيت قال : ـ

اذا ما قلت قافية شرودا   تنخلها ابن حمراء العجان ؟!

ولا يكون الشاعر محتذيا الا بما يكون به آخذا وسارقا (٤١) ·

هكذا قال · وهو واضح من المثال ·

ونلاحظ أن ثمة اختلافا بين وجهة نظر كل من القاضي وعبد القاهر في احتذاء المثال ، فالقاضي يدفع به تهمة السرقة ، وعبد القاهر يثبتها به ·

واحتذاء المثال ـ حسبما يوحى به اسمه ، ومما مثل له به القاضي ، وكما عرفه عبد القاهر ـ نوع من التأثر ، بل هو التأثر بعينه ، والتأثر ليس سرقة ، فكذلك احتذاء المثال ، وهذا يعني أنهما كلمتان مترادفتان على معنى واحد هو أن الشاعر بمذهب غيره في التفكير أو في التعبير · لكن ·

لم اختلف الناقدان في تقييمه فجعله أحدهما قرار براءة ، وجعله الآخر قرار ادانة ؟! ·

الرأي عندي أن ما مثل به كل منهما هو سبب اختلافهما ، بمعنى أننا لو عرضنا ما مثل به له عبد القاهر على القاضي لقال فيه بالسرقة ، وما مثل به القاضي على عبد القاهر لنفاها عنه ·

٤ – قال عبد القاهر بالتناسب ، ومثل له بما مثل به القاضي قال : ان اللفظ لا يخفي المعنى ، وانما يخفيه اخراجه في صورة غير التي كان عليها ·

مثال ذلك أن القاضي أبا الحسن ذكر فيما ذكر فيه تناسب المعاني بيت أبي نواس :

خليت والحسن تاخذه　　تنتقى منه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب :

كانك جئت محتكما عليهم　　تخير في الأبوة ما تشاء

وذكر أنهما معا من بيت بشار : –

خلقت على ما في غير مخير　　هواي ، ولو خيرت كنت المهذبا

ويسلم عبد القاهر بوجهة نظر أستاذه قائلا : –

« والأمر في تناسب هذه الثلاثة ظاهر » (٤٢) ·

– ٥ –

أورد عبد القاهر جملة من الشعر الذي أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا في معنى واحد وهو ينقسم قسمين : –

قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد اتى بالمعنى غفلا ساذجا وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب ·

وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصور (٤٣) ·

ومن ينظر في كتاب الوساطة يتأكد له أنه كان أحد المصادر القريبة من عبد القاهر وهو يكتب هذه الجملة من الشعر ·

- ٦ -

جعل القاضي الطبع والذكاء من مقومات الشخصية الأدبية مع الثقافة والدربة ·

وعن الطبع قال : —

« واذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء ، والبحتري في المتأخرين ، وتتبع نسيب متيمي العرب ومتغزلي أهل الحجاز كعمر وكثير وجميل ونصيب وأضرابهم ، وقسهم بمن هو أجود منهم شعرا وأفصح لفظا وسبكا ثم انظر واحكم وأنصف ، ودعني من قولك : —

هل زاد على كذا ؟ وهل قال الا ما قاله فلان ؟ فان روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به (٤٤) ·

ولا يكتفي القاضي بهذه الاحالة ، لكنه يصر على أن يضعنا وجها لوجه أمام مقتطفات رائعة من شعر جرير والبحتري ، لنعرف فرق ما بين المصنوع والمطبوع وفضل ما بين السمح والمنقاد والمستكره والصعب ·

***

والذكاء كالطبع في لزومه للأديب ، فعملية الخلق الأدبي عملية شاقة تكتنفها الصعوبات من كل جانب ، ولابد لصاحبها من ذكاء حاد أو على الأقل فوق المتوسط ليقهر هذه الصعوبات ويتخلص منها ·

وقد أثبت علم النفس الحديث أن متوسط ذكاء العباقرة أعلى من متوسط غيرهم من الناس (٤٥) ·

والذوق هو القوة التي نقدر بها الأثر الفني ، وقد رفع القاضي من شأن الذوق وجعله المرجع الأساسي في تقدير الأدب ·

والأذواق التي يعنيها انما هي أذواق المتخصصين أصحاب القرائح الصافية والطبائع السليمة ، تلك التي طالت ممارستها للأدب فحذقت

نقده ، وأثبتت عياره ، وقويت على تمييزه وعرفت خلاصه . فلكل صناعة أهلها الذين يرجع اليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عن اشتباه أحوالها (٤٦) .

وانه ليؤكد ذلك بقوله : —

« والشعر لا يحبب الى النفوس بالنظر والمحاجة ، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة ، وانما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشيء متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ، ويكون جيدا وثيقا وان لم يكن لطيفا رشيقا ، وقد تجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة ، وأخرى مستحلاة مرموقة » (٤٧) .

* * *

واذا كان هذا هو تعويل القاضي على الطبع والذكاء في انتاج الأدب ، وعلى الذوق في نقده ، فان عبد القاهر قد ذهب الى ذلك كله بقوله في دلائل الاعجاز :

« ان المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها وتحدث له علما بها حتى يكون مهيئا لادراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة ، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له .

كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التي بها يفهم ، لأن أصلك الذي ترده اليه وتعول في مخاطبته عليه استشهاد القرائح وسبر النفوس وفليها (٤٨) .

هذا الذي ذكرناه بعض ما لاحظناه من توافق وجهات النظر عند كل من القاضي وعبد القاهر وبقي الاحساس الذي يحسه قارىء الوساطة وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، وهو احساس بالألفة والأنس في صحبة هذه الكتب الثلاثة ، حتى ليظن أنها صادرة عن مؤلف واحد ، فالأسلوب هو الأسلوب ، والروح هي الروح ، والاتجاه هو الاتجاه ، بل ان بعضا من الانعكاسات النفسية للرجلين تقع متقاربة على بعض الأشخاص والأشياء وبخاصة في المعنويات .

فهما يمقتان الجهل والغرور وادعاء المرء ما لا يحسه ، وهما متفقان في ايثار البحتري على أبي تمام .

وفي الورقة الأولى من الوساطة يتحدث القاضي عن العلم حديث المقدر له المؤمن به في ايجاد أفضل الصلات بين الناس ·

ونفس الشيء نجده عند عبد القاهر وهو يستفتح دلائل الاعجاز ·
فلم يكن وهما اذن ما قلناه من أن ثمة تقاربا بين الرجلين في الفهم والروح والاتجاه ، بل لقد ثبت أن عبد القاهر كان يقتفي أثر القاضي الجرجاني ويضع أقدامه على مواقع خطاه ·· والحمد لله ؟

د· عبده عبد العزيز قلقيله
كلية التربية ـ جامعة الرياض

الهوامش

١ ـ معجم الأدباء جـ١٤ ص ١٤ ·

٢ ـ انباه الرواه على أنباه النحاة جـ٢ ص ١٨٨ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ·

٣ ـ معجم الأدباء جـ٧ ص ٣ وبغية الوعاة ص ٣١٠ طبعة سنة ١٩٦٤ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ·

٤ ـ أسرار البلاغة ص ٣ ·

٥ ـ الوساطة ص ٢٣ ·

٦ ـ البيان والتبيين جـ١ ص ١٥٩ ·

٧ ـ العمدة جـ٢ ص ٢٥٣ ·

٨ ـ الوساطة ص ٤ ·

٩ ـ الوساطة ص ١٧ ·

١٠ ـ الوساطة ص ٢٦

١١ ـ الوساطة ص ١٨٠ ·

١٢ ـ أسرار البلاغة ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ·

١٣ ـ نقد الشعر ص ١٢٧ ·

١٤ ـ الوساطة ص ٢٦

١٥ ـ فن الشعر د· احسان عباس ص ١٨٢ ·

١٦ ـ أسرار البلاغة ص ٩٢ ·

١٧ ـ أسرار البلاغة ص ٩٨ ·

١٨ ـ أسرار البلاغة ص ٢٦٥ .

١٩ ـ الوساطة ص ٤٣١ .

٢٠ ـ أسرار البلاغة ص ١١٨ .

٢١ ـ الوساطة ص ٨٦ وأسرار البلاغة ص ١٢٠ .

٢٢ ـ الوساطة ص ١٨٣ وأسرار البلاغة ص ١٧٢ .

٢٣ ـ أسرار البلاغة ص ١٧٦ ـ ١٧٧ والوساطة ص ٢٣٤ .

٢٤ ـ الوساطة ص ١٥٦ .

٢٥ ـ الوساطة ص ٢٠٠ .

٢٦ ـ النقد المنهجي د. محمد مندور ص ٣٠٩ .

٢٧ ـ الوساطة ص ١٧٩ .

٢٨ ـ الوساطة ص ١٨٠ .

٢٩ ـ الوساطة ص ١٧٩ .

٣٠ ـ الوساطة ٣٠ .

٣١ ـ الوساطة صص ١١٦ ، ١٧٨ وديوان المتنبي بشرح العكبري ج ٤ صص ١٤٢ ـ ١٤٩ .

٣٢ ـ الوساطة ص ٣٥٤ .

٣٣ ـ الوساطة ص ١٨٣ .

٣٤ ـ أسرار البلاغة صفحات ٣٩٣ ، ٢٩ ، ٢٩٥ .

٣٥ ـ أسرار البلاغة ص ١٢٢ والوساطة ص ٩٦ .

٣٦ ـ الوساطة ص ٤٣ .

٣٧ ـ دلائل الاعجاز صفحات ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، والوساطة ص ٩٦ ـ ٩٧ .

٣٨ ـ دلائل الاعجاز ص ٣٢٢ والوساطة ص ٣٢ ـ ٤٠ .

٣٩ ـ الوساطة ص ٢٠٤ .

٤٠ ـ الوساطة ص ٣٠١ .

٤١ ـ دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

٤٢ ـ دلائل الاعجاز ص ٣٩٠ والوساطة صص ١٩٥ ـ ٢٠٠ .

٤٣ ـ دلائل الاعجاز صص ٣٧٤ ـ ٣٨٨ .

٤٤ ـ الوساطة صص ٢٣ ـ ٢٤ .

٤٥ ـ انظر في هذا تجربة ترومان في كتاب « من الوجهة النفسية » لمحمد خلف الله ص ٣١ .

٤٦ ـ الوساطة ص ص ٩٦ ـ ٩٧ .

٤٧ ـ الوساطة ص ٩٧ .

٤٨ ـ دلائل الاعجاز صص ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .